

عبد الرحيم مرشدة
قسم اللغة العربية
جامعة جرش - الاردن

التفكير النقدي الادونيسي
والاستشراق

ملخص

تسعى هذه الدراسة الى الوقوف على انماط التفكير النقدي الادونيسي و تتبع الدراسي مصادر هذه الانماط في مستويين:

الاولى: المستوى الاستشراقي الذي يشكل مرجعية ضاغطة على عقلية ادونيس و التي كان لها الحضور اللافت في طروحاته النقدية المختلفة، و لا سيما، في (الثابت و المتحول) الثاني: الميوتوى التراثي العربي، الذي يشكل مساحة كبيرة في نقد ادونيس. هذه المساحة التي كثيرا ما حاول الانقلاب منها سعيها الى التجديد و التحديث لمسارات الادب العربي.

و قد جاء اختيارنا لادونيس نتيجة عوامل عدة. كان من ابرزها انه شاعر و ناقد ثم ان طروحاته النقدية احدثت ردات فعل مختلفة و اثارت سجالا نقديا ساخنا اضافة الى ان ادونيس صاحب مشروع خاص في تحديث القصيدة العربية

يبدو من المفيد العودة لتصدير الأب "بولس نوي" للثابت والمتحول/الأطروحة؛ إذ يقوم على هذا التصدير كثير من التساؤلات التي يمكن اعتبارها مشروعة إلى حد بعيد، إضافة إلى أن هذا التصدير صادر عن ذهنية استشراقية بالدرجة الأولى.

لماذا يشعر "بولس نوي" بالحرص أمام طالب يسجل لأطروحة دكتوراه؟ هل مرد ذلك توافق ما في البنية الذهنية لكليهما؟ هو يحاول تصريحاً الإجابة عن ذلك، لكن هذا التصريح قد يحتل ما ورائيات ما، تتوضح من خلال العرض التقديمي للأطروحة، حيث تتماس ذهنية "بوليس نوي" مع طالبيه فكرياً، حول موضوع الدراسة، يجسد تحقيقاً لمشروع -حلم- يود إنجازه، وقد تم هذا بالفعل فيما بعد.

إن مثل هذه المشاريع (الحلمية)، بالنسبة لمستشرق متخصص في الفلسفة والدراسات الإسلامية تمس التراث العربي، باعتباره مركزاً قاعدياً يتأسس عليه بنية العقل العربي، إضافة لكونها بنية تحتية "للكون الإنساني العربي".

مثل هذه الدراسات تكون لها أهمية خاصة، لما لها من أثر ليست لدى الشعوب موضوع الدراسة حسب، وإنما للذين يفيدون بإطلاق من مثل الموضوع. كانت مضامين الأطروحة الأساسية - كما سلف - حلما من أحلام "بولس نوبا" وربما لدى غير واحد من المستشرقين، وهو لم يتحمس له (المشروع) لولا فهمه الماورائي والعمقي لماهيته، والأهداف التي قد يتمخض عنها، بنتيجة الرحلة الاستكشافية المتوقعة في بحر التراث العربي، إن جاز التعبير.

يشعر الأب، أو على الأصح، يستشعر تحقيق الحلم بطريقة منجزة من الآخر، لا سيما وأن هذا الآخر (شاعر) له تجربة ليست باليسيرة في الشعر العربي، وهو باحث موسوعي مطلع؛ من هنا انبثق تحقيق الحلم على أرضية الواقع، ولهذا نجد "بولس نوبا" يقول لطالبه (إنك ستحقق حلما حلمته في شبابي مرتين)⁽¹⁾ ⁽¹⁾ ويضيف الدارس - لا بل مرات - بقدر الإلحاحية النفسية والذاتية، وحتى الإيديولوجية الفكرية على الموضوع.

جاء أدونيس لإنجاز مهمة، أو على الأقل، ليسهم في إنجاز هذه المهمة (الحلم لدى الأب)⁽²⁾ وكان أدونيس الابن الأكثر نشاطا في حضرة أبيه، وهنا قد يبدو مناسبا التعريف "بولس نوبا"، لعل ذلك يشكل مفتاحا ما يسهم في توضيح ما نذهب إليه حول الثقافة العربية، من وجهة نظر أدونيس.

"بولس نوبا" عالم استشرق اهتم بالفكر الإسلامي، ولا سيما الأبعاد الصوفية منه، وبدأت اهتماماته هذه بعد التقائه بالمستشرق "ماسينيون" حيث كان لهذا اللقاء الأثر الفعال في توجيه "بولس نوبا" نحو الحركات اللافتة في تاريخ الفكر الإسلامي، إذ كان قبل ذلك يهتم بالنقد الشعري عند العرب، ويتضح ذلك من قوله (كان حلمي أن أحاول التخصص في دراسة الشعر العربي لأميز ما فيه من الفصاحة والبلاغة، ولكن لقائي بـ"ماسينيون" غير مجرى حياتي، فترك الشعر وانصرفت إلى التصوف)⁽³⁾.

انزياحات "بولس نوبا" هذه وشغفه بالصوفيات لم يأت اعتباطا أو عبثا، وإنما كان يتكئ على خلفية ثقافية، وحلم ثقافي، ينبعان من مرجعيات أيديولوجية إستشراقية؛ وبهذا يكون الانحراف عن دراسة الشعر ونقد الشعر من زاوية بلاغية له ما يبرره، ولا يفوت

الدارس انتماء الأب "بولس نوبيا" إلى (اليسوعية) كفرقة -إن جاز التعبير- وهي من الفرق النصرانية اللافتة في الفكر النصراني، تتجاوز الظاهر في فهمها للنصوص، وتهتم بالباطن (الماورائيات)، وكما هو معروف يوجد في الفرق الإسلامية ما يتوازي وهذا التوجه، فأهل الباطن (الباطنيون) معروفون في الإسلام، والتعلق بالتصوف، هو في الواقع يشكل انسجاما مع البنى الفكرية التي تأسست لدى "بولس نوبيا"، فإذا كانت الیسوعية تجسد شكلا من أشكال التصوف في الفكر النصراني، فالتصوف في الإسلام فكر واضح، وله أثر فعال في بنية العقل العربي، ويشكل ركيزة أساسية فيه، ولو حاول المرء تلمس هذا الاتجاه (الباطن - الفكري) لوجد أن أدونيس التلميذ ذهب في المنحى ذاته، بيد أنه كان الأكثر اقترابا من الموضوع لعلاقاته البحثية، وبتوجهاته هذه اقترب من الأب في قضايا عدة منها:

1. حين حاول أن يسهم في كشف تحولات بنية القصيدة العربية، وتتبع مساراتها المضمونية والشكلية، وتمكن من الوقوف على بعض المفاصل المهمة عبر التراث الشعري، والفكري، لفترات تمتد منذ انبثاق الإسلام وحتى مراحل متقدمة من هذا القرن.

2. ونتيجة لاطلاعه الواسع، وإفادته من هذه الرحلة الاكتشافية، اسهم في تحريك القصيدة العربية، والنقد العربي، باتجاه خلافي للسائد في الساحة الأدبية، ومن هنا مثلا جاءت إسهاماته في القصيدة الحداثية والنقد الحداثي، ومهدت مع آخرين، قبل ذلك، للشعر الحديث - إن جازت التسمية- الذي سماه "بولس نوبيا" (المحض) فأدونيس كان يكتب القصيدة غير التقليدية - على الأقل - لكنه تعلق بها كثيرا فيما بعد⁽⁴⁾، وربما يكون للأب دور ما في ذلك لاطلاعه على كتاب "هنري بريمون عن (الشعر المحض)، وقراءاته لأشعار "مالارمييه" و"بول فاليري" وآخرين، وفي المقابل كان قد اطلع على كثير من الشعر العربي؛ لهذا التفت إلى التحري عن مقاربات ما بين الشعر الغربي والعربي، وتتبع جذور مثل هذا الشعر - المحض إن وجد ليسهم في دفعه خطوات أخرى للأمام؛ فكان يتخذ من أشعار مالارمييه وفاليري ... معياراً مهماً للشعر الجيد، بل يراه مثالا صالحاً للتباعد. وكان أدونيس من التابعين لهذا اللون من الأشعار.

3. اقتراب أدونيس من الأب في بحثه (في بنية العقل العربي)، ليؤسس لجدلية " الثابت والمتحول" في تاريخ الفكر العربي، مع تبنيه - أدونيس - للمنهج الديكارتي⁽⁵⁾، (مبدأ الشك) وهو المبدأ ذاته الذي أتكأ عليه من قبل طه حسين، في بحثه المهم في الشعر الجاهلي، الذي يضارع منهج (الأب) الهيجلي (نسبة إلى هيجل) الذي يقوم مذهبه على أساس الجدلية أيضاً.

4. يقول "بولس نوبيا": (فعندما قرأت كتاب هيجل "تجليات الفكر"، لاحظت أن هيجل لم يعط أهمية للتجربة الإسلامية العربية، في مراحل تطور الفكر البشري، مع أنه لم يكن يجهلها، فتساءلت ماذا يا ترى سيكون كتاب عنوانه: تجليات الفكر العربي الإسلامي عبر تاريخه؟ وما الطريقة كتابته؟ وهل يمكن أن نفهم شيئاً من التاريخ العربي الإسلامي إذا لم يكتب هذا الكتاب؟)⁽⁶⁾، هل هذا يعني أن (الأب المحترم) يود إنجاز ما لم ينجزه هيجل في طروحاته وأبحاثه حرصاً على تبيان تطورات الفكر العربي عبر تاريخه، ولماذا؟، مع أنه في نية هيجل، لم يلتفت إليه حسب "بولس نوبيا".

يظن الدارس أن القضية أبعد من ذلك بكثير، إذا ما علم المرء أن (البحّثة الأب) وجد ضالته هنا، ليتكئ عليها، ويؤسس من خلالها مشروعاً استشراقياً مهماً في الثقافة العربية، لا حرصاً على الثقافة الفكرية والتراث العربيين، بل حرصاً على مرجعيات كامنة في بنيته العقلية الاستشراقية... وقد ظهرت الفرصة في توازي رغبة باحث آخر /وهو الطالب أدونيس/ في إتمام المشروع/ المهمة/ نيابة عن الأب وبتوجيهاته، وبذلك يكون قد تحقق أمران:

1. إنجاز البحث بالكيفية (الحلم) لدى المستشرق.
2. تحقيق البحث في بنية الثقافة العربية عبر تاريخها بوساطة بنية عقلية عربية، وفي ذلك تدعيم للبحث، معنوياً وفكرياً، وتنتفي بالتالي عنه ما يراه العقل العربي ك (بحث استشراقي).

الفكر الأدونيسي والتراث

يتخذ أدونيس في توجهاته النقدية، من الرؤية الدينية وسيلة للولوج إلى الثقافة العربية، وبالتالي إلى فهم البنية العقلية العربية، وهنا ينتج التساؤل التالي: إلى أي مدى

أسهمت الذهنية العربية في تثبيت المعيار الجاهلي، باعتباره المرجعية المثال لتبعية راحت تتجذب إليها على مدى عصور متتالية؟! وهذا التساؤل قد ينتجه قول "بولس نويّا": (إنها - معنى الرؤية الدينية - ظاهرة إنسانية لو غابت لكانت نتائجها وخيمة بالنسبة إلى التوازن الذهني، لا أقول هذا لكي أنكر دور الرؤيا - كذا - الدينية في تغلب الاتباع في الشعر، لكن ربما لم تتوصل هذه الرؤيا من فرض ما فرضته، إلا لأنها صادفت في بنية الفكر العربي ما ساعدها على تحقيق ما حققته...) (7)، ثم إن هذه السطور الالتفاتية للأب تثير لدى الآخر قلقًا تساؤليًا على مستوى الذهن العربي، لا سيما في عملية البحث عن العوامل الأخرى المساعدة في ترسيخ الاتباع بشكل سلطوي في الشعر.

إن أول ما يقفز إلى الذهن من العوامل، (ظاهرة القبول بالارتداد) إلى الماضي، وهي متجاوزة لظاهرة القبول للسائد، التي يراها أدونيس في (مقدمة للشعر العربي) (8)، وهذا يفترض حسب "الأب" قابلية بنية العقل العربي للتمحور حول ما كان... ثم يشي السياق بأن البعد الديني تدعم واكتسب قوته المهيمنة لوجود خلل ما في البنى العقلية السائدة، كون هذه البنى العقلية تبدو وكأنها مهيأة بنتيجة (الفراغ الديني) - إن جاز التعبير - ويرى الدارس في المنحى الأبوي ما ينقض هذه التوجهات لدى الأب نفسه، عند قوله

بعمومية الظاهرة الارتدادية، من حيث النكوص إلى الماضي، بحيث تشتمل الظاهرة الإنسانية بعامة، إذ هي ليست ظاهرة خاصة بالعالم العربي، ثم إن الارتداد للماضي يؤدي إلى عدم التوازن في بنية العقل الإنساني. والعقل الإنساني ظاهريًا - على الأغلب - محكوم بالتماس والتعلق بما كان والالتصاق بما هو كائن، إذ ربما يجد في ذلك راحة ما... إضافة إلى أن الساحة قبل مجيء الإسلام لم تخل تمامًا من (السلطوية الدينية) (9)، مع التحفظ على كلمة السلطوية بهذه الصرامة.

إن الذهنية الإنسانية لا يمكن لها الابتداء علميًا بما هو كائن فقط، وهي غير منطقية بتاتا... لأن الانبئات يعني الابتداء من فراغ، وهذا لا يستقيم والواقع، لأن الانقطاع عبر عنه أدونيس في قوله: (لسنا من الماضي. هذا هو الخيط الأول في نسيج الظل. الماضي هو سرنا. الإنسان عندنا ملجوم بالماضي. نعلمه أن يكسر اللجام...) (10)، ثم

يتراجع أدونيس بعض الشيء عن هذا القول، ربما لإدراكه خطورة هذا الانقطاع، وذلك في قوله في مراحل متقدمة: (إن الشعر العربي الحديث، أيا كان كلامه أو أسلوبه، وأيا كان اتجاهه إنما هو تموج في ماء التراث، أي جزء عضوي منه) (11).

المنحى ذاته يتضح في أشعاره، فتارة يشعر المتلقي كأنه إزاء شخصية متعلقة بالماضي كما في قوله: (أكنس العيون في غباري. أتسلل في ألياف الماضي فاتحا ذاكرة الأولين. أنسخ ألوانها وألون الأبر. أتعب وأرتاح في الزرقاء - يشمس تعبى ويقمر في لحظة واحدة) (12) وتارة ينسى الماضي ويتعلق بالمستقبل كما في قوله: (قادر أن أغير لغم الحضارة - هذا هو اسمي) (13) وقوله: (سيدتي أنا إسمي الغد الذي يقترب - الغد الذي يبتعد) (14).

إن العودة للماضي ليست دائما عودة سلبية بإطلاق، ولا تشكل ثباتا أو سعيا نحو الثبات بإطلاق، كما يرى "الأب بولس نوي"، و "أدونيس" بالنسبة لما يسمى بعصر النهضة، فالارتداد للماضي على مستوى الشعر والنقد في هذه الفترة بالذات ارتداد إيجابي لانهاية البنى القاعدية الأساسية الصالحة للانطلاق، والبعث والعودة هنا تكون تأسيساً وبناءً، ولا عودة نكوص وهدم، وحتى المفهوم الأدونيسي للهدم ينطبق على هذا العصر، فالهدم هنا (هدم انبناء) - إن جاز التعبير - لا هدم إحماء، هدم فينيقي تموزي. وهذا ما حصل بالنسبة لعصر النهضة (من وجهة نظر الدارس).

يتجل بالحنين إلى الماضي في غياب الحاضر المنتج الدافع؛ فالإنسان في طبيعته يحن للماضي وهي ظاهرة إنسانية - حسب نوي وعلماء النفس - لا سيما إذا كان الحاضر/الزمن دون الماضي خاصة عند إحساس الإنسان باجترار هذا الماضي، حتى الاجترار حالة تعويضية لأحشاء جائعة تتحرك متجاوزة السكون.

وإعادة البعث هي بمثابة إحياء بشكل أو بآخر، وتحتاج إلى جهد لا يقل عن جهد الإبداع/ وهو تأسيس الإبداع. وقد أحس غير واحد من النقاد العرب عندما أطلقوا مصطلح (الإحياء) على مرحلة "شوقي وحافظ وآخرين" ... (قالوا: إن شعر شوقي وحافظ هو من صميم مرحلة الإحياء التي تزعمها محمود سامي البارودي، والتي قامت لتستهدف ربط

حلقات التاريخ، كانت قد انفصلت عندما نضب الشعر العربي بعد عصور العباسيين⁽¹⁵⁾؛ ولهذا يبدو التقليد منتجا وفاعلا، ويسهم في عملية الخلق والإبداع؛ لأنه يتخذ بعد التحفيز، الذي هو تجاوز للمرحلة الآن - الخاوية - وتعلق بالماضي الأقوى، وبذا يمكن الانطلاق أو التهيؤ - على الأقل - حتى مع توكيد "بولس نوبا" على الانقطاع عن الماضي/ التراث لتأسيس الشخصية، حيث يقول : (نحن نعلم منذ فرويد أن الابن لا يستطيع أن يكتسب حريته ويحقق شخصيته إلا إذا قتل أباه. على الإنسان العربي أن يميت تراث الماضي في صورة الأب لكي يستعيده في صورة الابن...)⁽¹⁶⁾، إذا كان التراث بمثابة الأب عند أدونيس، ويجب قتله عند نوبا، فكيف يكون شكل الانبعاث إذا؟ هل يكون من فراغ، من غيبه؟ هل يكون من ركام مهدم؟ حتى مقولة "بولس نوبا" تتضمن فعل الاستعادة لا شعوريا، وكأنها تحركت على لسانه (فرويديا - نسبة إلى فرويد -).

لا يكون البعث من عدم، من غيب، ولا بد من استعادة له: (لكل أمة في التاريخ تراث واحد لا أكثر، كما للإنسان رأس واحد ولسان واحد، لا يمكن الاستغناء عن أحدهما إلا في حالات الجنون والانتحار)⁽¹⁷⁾، وإذا كان لا بد من الاستعادة فإنه يمكن أن يتصور بقاء الجدلية في كيفية هذه الاستعادة... وبذا تضعف مقولة الانقطاع التام، وبالتالي تكون المقارنة ممكنة مع ما ذهب إليه أدونيس من مراحل متقدمة من نقوده، كقوله: (إن تجاوز الماضي لا يعني تجاوزه على الإطلاق دائما، يعني تجاوزا لأشكاله ومواقفه ومفاهيمه، وقيمه التي نشأت كتعبير عن الحالات والأوضاع، الروحية والثقافية والإنسانية الماضية، والتي يجب أن يزول فعلها بزوال الظروف التي كانت سببا في نشوئها)⁽¹⁸⁾، فالإنسان العربي في قتله لأبيه/ التراث واستعادته في صور الابن، لا بد وأن يتشكل هذا المولود بعروق وراثية لامتلاكه شعورا جمعيًا، من الصعب تجاوزه... حتى هذه الشخصية المنجزة ستنحول زمنيا إلى تراث قابل للاستعادة، هذا الحديث أو شبيهه سيقود إلى الطرائق التي استند عليها أدونيس، ولاقت ارتياحا لدى أستاذه، وربما تتضح هذه الطرق من خلال منهج أدونيس البحثي.

يظهر مسار الحداثة عند أدونيس، منذ طروحاته الأولى والمبكرة في مجلة شعر، على الصعيدين، النقدي و الشعري، فقد جاءت إسهاماته لافتة، وكانت تبدو مختلفة إلى حد بعيد عند قياسها بغيرها من الطروحات، ومن هنا كانت تلقى العناية والاهتمام، من غير واحد من النقاد. وأصبحت طروحاته النقدية، خاصة، تتخذ أسلوبية أكثر وعياً وعمقا، في مرحلة ما بعد شعر، (لقد مثلت فترة ما بعد شعر، برأي عدد من الدارسين تغييرا جوهريا في فكره أدونيس) ⁽¹⁹⁾ ولعل مرد ذلك إلى تركيز بحثه في التراث العربي بأسلوبية لم يعتدها آخرون من النقاد، مما حملت غير واحد من النقاد على تناولها، سلبا أو إيجابا، تبعا لوجهات النظر لكل منهم، ولعل أهم هذه الطروحات ما جاء به في كتاب "الثابت والمتحول" الذي نشر شيء منه قبل الستينيات، فهذا علي الشرع يقول: (والحقيقة أن جزءا كبيرا من هذا العمل قد نشر في فترة الستينيات، أي قبل انتظام أدونيس في برنامجه الأكاديمي للحصول على درجة الدكتوراه). ⁽²⁰⁾

هذا الكتاب جاء في فترة هامة، لعلها تكون بداية إطلالة المثقف العربي على الحداثة بمعناها الواسع والتي وفدت إلى المنطقة من الغرب، فكان طرح الكتاب في الساحة النقدية العربية، بهذه الكيفية المنصبة على دراسة التراث العربي النقدي، خاصة، مثار جدل واسع، حرك معه الساحة النقدية وحفزها لإفراز العديد من الدراسات والنقود الهامة، نذكر منها على سبيل المثال مقالات رفعت سلام في كتابه "بحثا عن التراث العربي" ⁽²¹⁾ ونبيل سليمان في كتابه الموسوم "مساهمة في نقد النقد" ⁽²²⁾ وكاظم جهاد في كتابه الموسوم "أدونيس منتحلا" ⁽²³⁾ الخ.

إن تناول مسألة الحداثة عبر التراث النقدي العربي، جاءت عند أدونيس في مرحلة بالغة الحساسية، حيث طرحت (مسألة التراث في الساحة العربية بقوة، وراح النقاد يتناولونها بطرق مختلفة، ولكن وفق ما يبدو، ضمن خلفية أيولوجية وسلطوية على الأغلب، فبعضهم وقف إلى جانب التراث متمسكا بأصوله وقداسته، نظرا لخلفيتهم الإسلامية، واعتقادهم أن التمسك بالأصول التراثية واجب ديني، ومثال هذا التوجه نجده عند فكتور سحاب مثلا، في

كتابه الموسوم "ضرورة التراث" الذي يبدو منه النفس الإسلامي ولهذا انبرى للدفاع عن "التراث الإسلامي، و بعضهم حاول أن يواجه الفكر المعاصر، تماشياً مع مستجداته الحضارية، ومثال ذلك محمد عابد الجابري في كتابه الموسوم: "في بنية العقل العربي". الذي أثار جدلاً واسعاً حول الطريقة التي تناول بها التراث.

يبدو أن أدونيس كان من أوائل الباحثين في التراث العربي: النقدي، الشعري، الفكري، بهذا الأسلوب الجديد. صحيح أن هناك من تناول التراث بطرق مختلفة في هذه المرحلة مع هذه البدايات لأدونيس، لكن دراساتهم كانت تبدو وكأنها تسير وفق أيولوجية مسبقة، فدراسات حسين مروه، تفوح منها الروح الاشتراكية، نظراً لخلفيته السياسية وكذلك الحال يبدو محمد دكروب ومثله حسن حنفي... الخ، من هنا، تبدو دراسات أدونيس الأكثر توفيقاً على الصعيد النقدي، لصدورها عن باحث له خلفية شعرية ونقدية عميقة ومتمثلة لفكرة الحادثة.

لاشك في أثر المرجعية الغربية في فكر أدونيس النقدية، والتي تتضح أحياناً بشكل واضح في تسييره لخطاب الحادثة النقدية " وحتى الشعرية" لديه، هذا إضافة إلى مخزونه من القراءات في التراث العربي، حيث لا يمكن استبعاد المصادر الغربية نهائياً في مقولاته وطروحاته، وهو يصرح بذلك في غير مكان، فها هو يقول: (لا أظن أحداً يمكن أن يقول إن رينه شار، مثلاً، أو سان جون بيرس، أو ميشو، أو جوف، أو تولج، أو بريتون أو بونفوا، أو دوبرشية، أكثر حداثة من هيراقليطس، أو نيتشه، أو هولدرين، أو غوته، أو رامبو، أو بودلير، أو مالارمية، أو لوتر يامون، إلا بالمعنى الزمني، وهذا الذي أقوله فيما يتعلق بالكتابة الشعرية الفرنسية، (وأقوله قصدياً لأن هذه الكتابة هي مرجعيتنا الحداثية الأولى وهذا ينطبق تماماً على الكتابة الشعرية العربية، فليس أبو نواس، أو أبو تمام... أكثر حداثة من جلجامش أو أمري القيس إلا بالمعنى الزمني⁽²⁴⁾، ثم إن أدونيس يؤمن بأن الحادثة نتاج اندماج ثقافات، والحادثة العربية هي: (لقاء دياكتيكي بين ثقافتين عربية وغربية)،⁽²⁵⁾

هذا الحشد من الأسماء الغربية، التي ترجم أدونيس، أو اطلع على كتاباتها، على الأقل، هي التي أسهمت في حداثة الغرب، وأفاد منها الحداثيون العرب، ومن وجهة نظر غير واحد من النقاد العرب، وأدونيس منهم، وقد كان أكثرهم اتهاماً بهذه الإفادة والانتكاء على

الثقافة الغربية، حتى أن بعض النقاد عابوا عليه هذا المنحى، وذهبوا إلى رصد ما يتعلق بالطروحات الغربية في كتاباته، وعابوا انزياحاته إلى الحداثة الغربية، بهذه الكيفية الواضحة، وبعضهم اتهمه بانتحال أفكار النقاد الغربيين، أو على أقل تقدير صياغتها بلغة عربية.

يقول جهاد كاظم: (ثمة نادرة بصدد أدونيس المهتم بالشعر العربي مفادها: أن الرجل يعيد طبخ ما لغيره، تلخص هذه الصيغة بالطبع ما يقعون عليه من شعره، هنا وهناك، من أصداء لأعمال الآخرين، يعيد هو معالجتها أو يذيبها في نسيج لغته)⁽²⁶⁾، ولم يكتف الناقد بذلك، بل راح يعرض لنصوص أدونيس، التي راح يقابلها بنصوص لكتاب غربيين لإثبات ما أسماه "انتحالا"، ولا يود الدارس أن يدحض بعضها تحت ما يسمى "التناص" إلا أن ذلك يشكل إشارة واضحة إلى خلفية أدونيس ومراجعياته الحديثة المستقاة من الغرب، وإن كان من الصعب لملمة خيوط هذه المرجعية في طروحاته النقدية، خاصة، إلا نادراً والسبب في ذلك عدم الإشارة إلى مصادره.

وهذا ما لاحظته، أيضاً، نقاد آخرون؛ فهذا سامي مهدي يقول: (ولا يفوتنا أن نشير، قبل التوغل في هذا البحث - يعني دراسة لمجلة شعر - إلى إحدى الصعوبات التي واجهتنا أثناء ذلك، وهي: أن أدونيس لا يشير على الإطلاق إلى مصادره الأجنبية، أي مصادر المفاهيم التي يقتبسها، وكأنه يعتمد أن يقطع على الباحثين سبيل الوصول إليها)⁽²⁷⁾، إن تغيب مثل هذه المصادر وتوثيقها قد يكون معيباً لكن هذا لا يلغي دور أدونيس في تلمس الحداثة والاسهام بها عربياً، فهي أن لم تكن نقلت بعض المفاهيم للحداثة الغربية، فهي، على أقل تقدير قد عرّفت القارئ العربي بها، ودفعته للتفكير في مضامينها وممارستها.

ويرى الدارس مع غيره، أن أدونيس من أوائل النقاد العرب الذي أسهموا في الحداثة العربية وفي تأسيسها، مصطلحاً ومفهوماً، وجهده في ذلك يصعب نفيه إن لم يكن مستحيلاً. وهذا ما يثبته بعض النقاد أيضاً، رغم معارضتهم لبعض أفكاره الحديثة. يقول سامي مهدي: (إذا لم يكن أدونيس أول من أدخل مصطلح الحداثة بمفهومها الشائع اليوم إلى الأدب، فإنه أكثر من شغل به، ومن حاول إيجاد معادل نظري له، وذلك يصح القول

، مع بعض التحفظات ، بأن "الحدث" في الأدب العربي، من حيث هي مفهوم شامل لمصطلح محدد، أطروحة أدونيسية (28) .

الحدث التي سعى إلى إثباتها أدونيس ، وحاول بثها في العالم العربي ، جاءت مشبعة بروافد من الفكر الإستشراقي ، وقد بدت آثار هذه الروافد من خلال معالجة أدونيس للحركات الإسلامية ، لا سيما المتمردة منها على الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية، حيث رأى فيها المحرك الفعلي لعجلة التغيير والتطور .

إن الإستشراق بمفهومه الغربي خاصة ، جعل من المقولة الأدونيسية في الفكر العربي مقولة هدمية وبنائية في آن ؛ فحركة الهدم في هذه المقولة، سعت إلى خلخلة السائد والقار لدى الكثيرين من المتلقين والقارئ للتراث العربي ، والسبب في ذلك تركيز أدونيس على السلبيات وعلى مواقع الضعف في التراث ، وكان يكمن وراء هذا التركيز إيمان هذا الباحث بأفكار المستشرقين وبفكرة الشك التي نادى بها ديكاوت ، ولم يكن أدونيس هو الباديء بهذا التوجه ، في العالم العربي ، فقد سبقه إلى ذلك طه حسين وأستاذة المستشرق مارجليوث .

أما الجانب البنائي والإيجابي في المقولة الأدونيسية ، في الفكر العربي ، فقد أفادت من حركة النقد في العالم ، لاسيما الجانب المتعلق بالشعر الحديث ، إضافة إلى تطور حركة الترجمة في العالم العربي ، التي أسهم فيها أدونيس، حيث ظهر إلى جانب آخرين بوصفه ناقدا وشاعرا دافعا لحركة الشعر والنقد في العالم العربي ، فهذا أنسي الحاج يقول: (يبقى أدونيس هو المثال الأبرز على الحدث العربية) (29) . يبدو هذا صحيحا إذا ما أخذ بعين الاعتبار الطروحات الفكرية والنقدية والمقالات المنشورة حول الحدث في النتاجات العربية حتى المترجمات المهمة .

الحواشي

- 1- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول، ج1، بيروت، دار العودة، ط4، 1983، ص.9
- 2- لا أعني هنا البعد الديني لكلمة أب فقط، بل يضاف إليها ما أمكن من المفهوم العرفي والاجتماعي والفكري.
- 3- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول، ج1، ص.9
- 4- راجع ما صدر عنه من أشعار حيث ضمن كثيرا في المجموعة الكاملة، الصادرة عن دار العودة، (!). 1988
- 5- يقول ديكرت : (أنا أشك إذا أنا موجود) ويبدأ من هذه الجدلية لفهمه للحياة والوجود.
- 6- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول، ج1 المقدمة.
- 7- المصدر السابق.
- 8- أدونيس (علي أحمد سعيد) مقدمة للشعر العربي، بيروت ن دار العودة، 1979، ص.3
- 9- عبادة الأصنام هي لون من ألوان التدين، إضافة إلى وجود النصرانية وبقايا اليهودية ورواسب من ديانات أخرى شائعة في حينها.
- 10- أدونيس (علي أحمد سعيد) زمن الشعر، دار العودة، ط2، بيروت، 1978، ص.25.
- 11- أدونيس (علي أحمد سعيد) في الشعرية، مجلة الكرمل، ع3، 1981، ص.141، وقد ألفت هذه المقالة في المركز الثقافي الدولي بالحمامات في تونس، وأضافها أدونيس إلى كتابه الشعرية العربية الصادر عن دار الآداب عام 1985.
- 12- أدونيس (علي أحمد سعيد) الأعمال الكاملة، ج1، بيروت، دار العودة، ط4، 1988، ص.405.
- 13- المصدر السابق، ج2، ص.273.
- 14- المصدر السابق، ص.168.
- 15- العشماوي (محمد زكي) دلائل القدرة الشعرية عند شوقي، مجلة فصول، مجلد 31، ع1، 1988، ص.11
- 16- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول، ج1، ص.16.
- 17- الماغوط (محمد) قضايا الأدب والأدباء، ع1، 1962، ص.75.
- 18- أدونيس (علي أحمد سعيد) مقدمة للشعر العربي، ص.115.
- 19- المصدر السابق، ص.41.

- 20- الشرع(علي) بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، 1987،ص 22.
- 21- المصدر السابق ،ص 26.
- 22- سلام (رفعت) بحثا عن التراث العربي، بيروت ،دار الفارابي، 1989.وبعض المقالات المنشورة له في المجلات العربية لا سيما ما تعلق منها في الأدب والتراث في مجلة الآداب .
- 23- سليمان (نبيل) مساهمة في نقد النقد ، اللاذقية ، دار الحوار ، 1986.
- 24- كاظم (جهاد) أدونيس منتحلا ، المغرب ، دار أفريقيا الشرق ،.1991
- 25- أدونيس (علي أحمد سعيد) النص القرآني وآفاق الكتابة،دار الآداب 1993.
- 26- أدونيس (علي أحمد سعيد) فاتحة لنهايات القرن ، بيروت ، دار العودة، 1980، ص75.
- 27-كاظم (جهاد)أدونيس منتحلا، ص27. لمزيد من المعلومات يمكن مراجعة النصوص النقدية والشعرية لأدونيس ،والمقابلة بينها وبين الأصول الغربية . وهناك غير ناقد قد أشار لهذه القضية، منهم على سبيل المثال: المنصف الوهابي ، و عادل عبد الله ، وسام] مهدي.
- 28-مهدي (سامي) أفق الحداثة وحداثة النمط ،بغداد ، دار الشؤون الثقافية،1988،ص157، ويفرد سامي مهدي في هذا الكتاب نصوصا لأدونيس يقابلها بنصوص لكتاب غربيين ، ولكن بحدية أقل من جهاد كاظم .
- 29- المصدر السابق ،ص29.